الإسلام أو الشيعة - جدل اللفظ والمعنى -

في بحثنا السابق كنا قد تحدثنا عن - إشكالية المفهوم والدلالة - بين السُنة والشيعة ، وبيّنا الفوارق اللفظية والمعنوية بينهما ، وماهو الصحيح من جهة الإستخدام والمطابقة ، وقلنا هناك : إن السُنة هي الطريقة وهي القانون ، ولا يجوز إعتبار السُنة مجموعة الرجال من الناس ، وأما الشيعة : فهم الناس وهم التابعين أو الأتباع ، وقلنا هناك إيضاً : إنه لا يصح أبداً أن تتسمى جماعة ما بأنهم - أهل السُنة - ، معتبرين إن الصواب من جهة اللفظ والمعنى يكون أكثر إنطباقاً على - الشيعة - ، كتعبير عن الجماعة التابعة أو الجماعة الموالية .

وفي بحثنا هذا سنحاول تسليط الضوء على مفهوم جدل اللفظ والمعنى بين - الإسلام أو الشيعة - أو قل في بيان العلاقة بين - الإسلام والتشيع - كما دلت على ذلك لغة العرب وإستخدامات الكتاب المجيد لهذه اللفظة على الصعيد التداولي ، أو قل على الصعيد الإجرائي في دلالة معنى - المسلمين على إنهم الشيعة حصراً - ، وذلك بلحاظ الإستخدام ، وفي النتيجة يكون لدينا : إن كل مسلم فهو شيعي ، وكذا يكون كل شيعي فهو مسلم وهذه النتيجة يمكن فهمها بالمنظور الإبراهيمي لمعنى الشيعي ،

كما ويمكن إعتبار هذه النتيجة بيان للعلاقة الحيوية التي تربط بين لفظ الإسلام ومعناه ولفظ الشيعة ومعناه ، وهذه العلاقة هي التي يتأسس عليها كل شيء في حياة المسلمين .

ومن أجل إثبات المطلوب هذا ، سنستهل بحثنا هنا في الوقوف مع ما تعنيه كلمة - الشيعة - كما وردت في النص التالي بقوله تعالى : - وإن من شيعته لإبراهيم - الصافات 83 ، ونتسائل : - لماذا أستخدم النص لفظ - شيعته - في بيان تابعية إبراهيم وموالاته لنوح النبي ؟ ، ونعلم إن هذه التابعية وهذه الموالاة تجري في سياق العلاقة مع الله ، أي التابعية لنوح من حيث إنه مرتبط بالله وبتعاليمه ، والتابعية في كيفية الإيمان بالله كذلك ، فالنص قد صب هذه العلاقة في معنى هذا الوصف وهذه الدلالة ، ولذلك جاء باللفظ الدال عليه ، وفي ذلك إيضاً تتأكد مقولتنا عن الألفاظ وبأنها في الكتاب المجيد إنما وضعت لمعاني محددة ومطلوبة دون سواها ، ولو تأملنا سياق النص هذا نعلم إنه إنما كان يتحدث عن إبراهيم لا بصفته الشخصية الإعتبارية ، بل بصفته الإيمانية العملية والسلوكية ، وإعلان ذلك في النص هو بمثابة التوثيق لصحة علاقته بالله وصحة دعوته إلى الله ، فهو إذن ، أي النص هو توصيف للحال أو بيان للحال ، وفي كليهما يكون بمثابة الإجراء والممارسة التي تؤثر في السامع أو المُتلقي أو هي نوع من ذلك ، وبما إن إبراهيم النبي يتحدث عن الله وعن الوحي وعلاقته به لذلك تطلب الأمر منه ليقول لنا : بأن ما أدعوا له وما أعيشه إنما يجري في نفس السياق الذي سار عليه ودعا له

ومارسه نـوح ، - والفضـل لإبراهيـم فـي ذلـك إنـه أعلنه وأظهره ككيان وكتيـار مسـتقل و ذي ملامـح محـددة خاصـة ، وهـذا الكيـان هـو الـذي سـماه - الإسلام - كما يظهر ذلك في قـوله (هـو سـماكم المسـلمين مـن قبـل) - ، وجملـة هـو سـماكم لا تعني هو أبداً معنى المبتدئ لهذه التسمية أو هو أول من أطلقها ، بل تعني إنه هـو أول مـن أعلنهـا بصورتها المحددة ذات السمات الخاصة ، وهو في ذلك المعنى تابع لنوح أوإنـه معـه ، وهـذا مـا تـدل عليـه لفظـة - مـن شـيعته - ، والأمـر فـي تلـك التابعية يدور في الكيفية والطريقية التي أتبعها أو وظفها إبراهيـم النـبي فـي خطـابه للتخفيـف مـن حدة الصـدمة نظـراً للرافضـين لفكـرة نبـوته ، هـذا من الناحية الموضوعية ، خاصةً إذا ما أخـذنا بنظـر الإعتبـار مفهـوم و شـرط المتابعـة أو المشـايعة ، ككونه الإلتزام بالقيم نفسها والتي كان عليها مـن شـــــــــــــــــــايعه .

وقد عرفنا الكتاب المجيـد علـى أن نوحـاً كـان مـن المسلمين بدليل قوله تعـالى : - فـإن تـوليتم فمـا سألتكم من أجر إن أجـري إلا علـى الله وأمـرت أن أكون مـن المسـلمين - 72 يـونس ، ودلالـة اللفـظ فـي جملـة - وأمـرت أن أكـون مـن المسـلمين - تعني إن نوحاً كان مأموراً من قبل الله ، ليكون مـع تلك الجماعة أو مع ذلك الكيان الذي كـان يتشـكل ويتبلور تحت منظومـة قيـم محـددة فـي - الإيمـان بالله والإيمان باليوم الأخر والعمل الصـالح - ، فهـو إذن مامور ليكون مع هذه الجماعة مع قيمهـا ومـع إيمانها ، وهي موضـوعياً تشـير إلـى كيفيـة تبلـور هذا التيار وتكونه ، وما هي العلامات الفارقة التي

تجمعه ؟ ، وتربط ذلك بالتطور الذهني والمعرفـي لدى نوح ، ولدى الجماعة التي آمنت بتلك القيـم ، ومن هنا يمكننا أن نعرف : إن إبراهيم في إعلانه - هو سماكم المسـلمين مـن قبـل - ، أي هـو الـذي اعلن عن شكل الدين فـي صـورته النهائيـة بعـدما تبلورت وتطورت معالمه عبر الزمن ، وهو في هذه المنظومة - أول المسـلمين - ، أي الـذين أسـلموا أو الـذين أعلنـوا إسـلامهم فـي هـذه المرحلـة ، وصيغة - أول المسلمين - المسبوقة بلفـظ - أنـا - هـي صـيغة تعريفيـة عـن الإعلان المباشـر فـي الإنظمـام لهـذه الحركـة وليـس بمعنـى الأول الرقمـي أو العـددي - وهـذا اللفـظ جـار فـي لغـة العرب وقد عبر عنه حمزة عم النبي حين قال وأنـا على ديـن محمـد - هـي صـيغة مـن صـيغ الإعلان الرسمي والإنتماء ، وقـد وردت هـذه الصـيغة فـي التعريف في أكثر من موضع مـن الكتـاب المجيـد ، وهـي توكيـد لنـوع الإنتمـاء والـولاء ، وهـي صـيغة تعريفية أو إعلانية عامة يلتقي عليها الجميـع دون النظـر إلـى الجـوانب المرحليـة ولا تعنـي الدقـة الحصرية فـي معنـى - أول - بـل هـي تـدخل فـي معنى أول مـن جهـة الزمـان هـي ظـرف لا يلغـي السـابق ولا اللاحـق .

وأما عبارة - أن أكون من المسـلمين - الـتي قالهـا نوح فهي إشارة لما كان بالفعـل أو عـن التشـكيل الحركـي الـذي كـانت تتوضـح معـالمه وترسـم ، ضـمن أو مـن خلال الإشـتقاق المتعلـق بلفـظ الإسـلام والـذي هـو :

1 - الإيمـان بـالله الواحـد الأحـد .

2 - الإيمـــــــــان بـــــــــاليوم الأخـــــــــر .

3 - والعمـــــــــــــل الصــــــــــــــالح .

فـإن تكـون مسـلماً يعنـي أن مؤمنـاً بهـذه القيـم الثلاثة وتعمل بها ، وهذه القيم هي الإسلام الذي عليه نوحا وجميع الأنبياء وعامتهم ، وهذا يعني إن كل من آمن بهذه الثلاثية وأعتقد بهـا فهـو مسـلماً أو هو من المسلمين ، وقد دل على ذلك كتاب الله المجيـــــــد فـــــــي قـــــــوله تعـــــــالى : -

(إن الـــذين آمنـــوا والـــذين هـــادوا والنصـــارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صـالحا فلهم أجرهـم عنـد ربهـم ولا خـوف عليهـم ولا هـم يحزنـــــــــــــون (62 البقـــــــــــــرة) .

وفي سورة المائدة يأتي اللفـظ عينـه ، كمـا يـأتي في سورة هود مضافاً إليـه المجـوس ، وفـي كـل تلك النصوص يكون المسلم بحسب ما تُعرفه لنا : - هو من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً - هذا هو المحدد لمعنى الإسلام ، ولم ينظر النـص إلـى من ينتمي وإلـى مـن يتبـع مـن الأنبيـاء والرسـل ، ذلك لأن النص إنما يتحرك ضمن مفهوم - إن الدين عند الله الإسـلام - ، أي إن كـل نـبي وكـل رسـول يدعوا لهذه القيم ويؤمن بها فهو مـن المسـلمين ، وهـذا الـذي نقـوله هـو الإسـلام ، وأمـا الأفعـال والممارسات والطقوس العبادية وغيرها ، فتخضع للإيمان الخاص بالرسالة والنبوة المرحلية الزمنيـة ونتيجة لطبيعـة الإيمـان هـذا فهـي ليسـت سـواء

لـدى الجميـع ، ولتوضـيح الفكـرة نقـول : - إن مـا يفعلـه أتبـاع كـل نـبي مـن ممارســات وعبـادات وأعمـال ووظـايف ، وحســب تعـاليم ذلـك النـبي والرسول فهي صحيحة ومبرئة للذمة ، ومعلوم إن مقياس الصحة في البراءة الشرعية ليـس مطلقـاً بـل هـو نسـبي ، ولنسـبيته تلـك فلا يجـوز تحديـد صحة البراءة الشرعية بنـاءاً علـى مـا نفهمـه نحـن من عنـوان الصـحة ، ولهـذا لا يجـوز إعتبـار أعمـال العباد باطلة بحسب ما نفعله نحـن مـن الأعمـال ، كذلك لا يصح قياس ذلك بناءاً على مـايفعله غيرنـا المُغـــــــــــــــــــايِر لهـــــــــــــم .

ذلــك لأن الإيمــان بــالنبوات والرســالات بحســب مفهوم الكتـاب لازمـه ومقتضـاه عـدم الخـروج عـن تلـك الثلاثيـة الـتي أشـرنا إليهـا ، ومـا عـدآها مـن الإعتبـارات فيحكمـه الواقـع الموضـوعي ، أعنـي بذلك كلاً حسب فهمه وإدراكه وما توصـل إليـه ولا ضير في ذلك ، وهذا ما أشار إليه البيان التالي : - قل كل يعمل على شاكلته - ، ومادآم الأمـر كـذلك وهو كذلك يكون لدينا في إثبات المطلب : - إن كل ما يقوم بـه أتبـاع موســى مـن أفعـال وممارســات سلوكية وعبادية صحيح إن إلتزموا بشـروط ثلاثيـة القيم تلـك ، وهـذا هـو الشـرط الموضـوعي اللازم لصـحة الفعـل ومـا يؤســس بنـاءاً علـى الواقــع ، والحال عينه يصح كـذلك بالنسـبة لأتبـاع عيســى حين يتحقق لديهم الشرط الموضـوعي فـي هـذه القيـم الثلاث المتقدمـة ، ونفـس الشــيء نقـوله بالنسبة لأتبـاع محمـد ، إذ إن شـرط صـحة العمـل وشرط صحة السلوك مرتبط بصحة الإلتزام بـالقيم الثلاث تلك من جهة التابعين ، وشرط الصـحة فـي

كل ذلك : هو الإيمان والعمل بهذه المنظومة القيمية - والتي أشرنا إليها في معنى الإسلام أو التي تعني الإسلام ، وأما نفس العمل فليس شرطاً في صحة العمل ، بدليل قوله - لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى - ، و بناءاً عليه يكون شرط الصحة في العمل مرتبط بشرط الصحة في الإيمان ، ذلك لأن كل فعل تحكمه شروطه الخاصة به ، وهي تتعلق بتلك الثلاثية من جهة المصدر ، ومن جهة الإيمان بها الداعي لتنزيه العمل مع الإستطاعة ، والعمل هو أمر ونهي وهذا تحدده ضوابط المصلحة والقصد ، ونعلم جيداً إن المصلحة والقصد هي مفاهيم نسبية بحسب كل ظرف ووعي وإدراك ، وإرتباط الأمر والنهي بمفهوم النسبية يجعل منه بحسب الرتبة ثانوي وذلك بحسب المتعلق به .

وإذا كان نوحاً قد طرح مفهوم كونه - من المسلمين - للتداول ، فإنه قد طرح ذلك في التعبير عن نفسه وعن الجماعة التي أنتمى إليها والتي بدأت تتشكل تبعاً لمفهوم تطور الفكرة ذاتها في عهده وما قبل عهده ، هذه الجماعة بدأت تتبلور عندها قضية الإيمان بالله واليوم الآخر في الصورة هذه ، وهذا هو السقف الذي حدد مفهوم الإسلام والذي سيجري عليه ويتبعه كل الموحدين ، إذن فهو قد بين لمن حوله معنى كونه من المسلمين .

ونعود لنقول : إذا كان إبراهيم المُشايع والتابع لنوح في كونه من المسلمين ، يكون إبراهيم النبي صاحب مشروع الإعلان الرسمي لهذا التيار

ولهذا الدين ، ضمن هذه المحددات وهذه الأوصاف وقد عبر النص عن ذلك بقوله : - كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - آل عمران 3 ،.

وكأن النص في هذا الوصف يريد القول : - إن نوحاً الذي كان من المسلمين قد تابعه وشايعه إبراهيم ضمن هذه المبادئ وتلك القيم ، وإبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، أي كان مستقيماً في علاقته مع تلك القيم ، وهذه الكينونة الحنيفية مفهومة بالتضمن والخطاب توكيد على الإستقامة وعدم الإنحراف ، لأن الشرك كمفهوم هو إنحراف عن الحنيفية .

والإسلام في قيمه ومبادئه هو كذلك ، ولما كان إبراهيم الحنيف المسلم من شيعة نوح ، فهذا دليل مضاف على أن التشيع الذي تبناه وطرحه هو الإسلام الحنيف من جهة المضمون ومن جهة الدلالة .

ويعني ذلك إن الإسلام هو التشيع في صيغته الإبراهيمية والتي لازمها الإستقامة وعدم الشرك وعدم الخلط في العبادة وفي الإلوهية ، والشيعي في التعريف القرآني : هو هذا الكائن الإنساني من جهة الطبع والطباع ، ولذا فقد تتحكم به السلطات المحلية والبيئية التي ينتمي إليها يتأثر بها وتؤثر فيه ، كما وتتحكم فيه درجة الوعي والجو الثقافي والفكري المحيط والعوامل الإجتماعية والسياسية والإقتصادية ، وهذه عوامل بطبيعتها ضاغطة في تكوين شخصية الإنسان وما يؤمن به ، و بما إن الشيعي هو هذا

الفـرد أو هـو هـذا الكـائن الإنسـاني فهـو يخضـع بالضرورة لـذلك الواقـع وبـدرجات متفاوتـة صعوداً ونـــــــــــــــــــــــــــــــــــزولاً .

ولكـــي نُـــبين درجـــة ونوعيـــة هـــذا التـــأثير ، سنسـتعرض بعضـاً مـن نصـوص الكتـاب المجيـد ، وذلـك مـن أجـل تعميـم الفـائدة ، وهـذه النصـوص على هذا النحو ، قال تعالى في سورة مريم 69 : - ثـم لننزعـن مـن كـل شـيعة أيهـم أشـد علـى الرحمـن عتيـا - ، وواضـح إن لفـظ - شـيعة - فـي النص تؤكد على المعنى الذي ذهبنا لـه ، فـي أن الشيعة هم الناس التابعين أو الموالين لفكر مـا أو لمجموعة ما أو لزعيم مـا ، ولا يهـم هنـا فـي نـوع الموالات سواء أكانت في الدين أو فـي السياسـة أو حتى القبيلة والعشيرة ، وفي سورة الأنعام 65 : - أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضـكم بـأس بعـض - يحدثنا النـص علـى أن الشـيعية هنـا هـي الإذلال في صيغة النزاع والتقاتل ، كمـا يحـدث اليـوم بيـن فئات المسـلمين وتحـت نفـس الشـعار ونفـس الخطاب ، وفي نفس سـورة الأنعـام 159 ، وصـف الشـيعية كسـلوك سـيء ، حينمـا لا تتبـع الكلمـة السواء كمـا فـي قـوله : - إن الـذين فرقـوا دينهـم وكانوا شيعاً لست منهم فـي شـيء - ، والتفريـق فـي الـدين مـن جهـة الجماعـة هـو تفكيـك للـدين ولوحـدة القيـم فيـه ، وطـبيعي إن هـذه الصـيغة السلبية للمعنى هي صيغة أو صـفة مشـتقة مـن طبيعة العمل وليس من اللفظ ، إنما دلالة اللفظ لا تتعدى المعنـى فـي كـونهم جماعـة مـن البشـر ، ومقتضـى الوصـف فـي النـص للجماعـة البشـرية التابعـة والـتي تعمـل الفسـاد وليـس لمعنـى

التسمية فقط ، ويحدثنا الله عن فرعون كيف أستطاع من خلال إستغلال سلطته ليفرق بين الناس ، ويزرع بينهم العداوة والبغضاء من خلال تفريقهم وتقسيمهم لكي يسهل عليه حكمهم وهذه سياسة قديمة جديدة ، نقرأ هذا المعنى في سورة القصص 4 قوله تعالى : - إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ....- ولفظ المضاف والمضاف إليه يدلنا على المعنى الذي ذهبنا إليه ، وللتأكيد على إن الشيعة لفظة دالة على عموم معنى المتابع والموالي ، نقرأ ذلك في سورة القصص 15 قوله تعالى : - فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه - ، والنص يبين لنا بأن الشيعة هم التابعين أوالموالين من جهة الفكر أو القومية أو الطائفة وهكذا كان صاحب موسى ، المهم إنها لفظة دالة على معنى الكائن البشري ثم يأتي القيد في نوع التابعية وطبيعتها ، وتبقى مسألة الصحة في المتابعة والولاء رهن بالعمل فهو الدليل الدال عليها سلباً أو إيجاباً ، كما نفهم الشيعي الصالح من مطابقة عمله على منظومة القيم التي أسسها الله ، وعن مفهومه لمعنى الإسلام الذي يدعوا له ويبشر به ، والذي على ضوئه أعتبر كل نبي وكل رسول هو مسلم وهو من المسلمين ، ما دامه يدعوا إلى الله والحق ، وعلى هذا الإعتبار فالشيعة أو التشيع حين يكون أو تكون وفقاً للصيغة الإبراهيمية فهو يعني أو تعني عندنا الإسلام ونفس الشيء قرره الكتاب المجيد على تفصيل ، وفي نفس السياق يكون من باب المخالفة : كل ما عدى ذلك المفهوم الإبراهيمي يكون ليس مسلماً وليس شيعياً ، أو كما عبر

النص في موضع هو الشرك بلحاظ مفهوم المخالفة .

وخلاصة البحث وما يمكننا إستقراءه من كل مما مضى : يكون معنى الشيعة هي الجماعة التي توالي فكراً ما أو ديناً ما أو رجلاً ما ، وهي لفظ صحيح دال على معناه هذا في الموالات والمتابعة ، وأما السُنة : فهي لفظ له وظيفة محددة تعني القوانين والأنظمة والتشريعات ، ولا يصح وصف الناس بها كما لا يصح القول - أهل السُنة والجماعة - من هذا الإعتبار ، ودليلنا إن السُنة في الكتاب المجيد وفي لغة العرب هي القوانين والشرايع وليس الناس والتابعين ، وأما الشيعة فهي اللفظ الصحيح الدال على هذا المعنى في هذا المجال ، وللمقاربة والأستئناس نذكركم بقول الإمام الحسين يوم عاشوراء وهو قول مشهور ، حينما خاطب الجماعة الأخرى التي كانت تقاتله ، بقوله : - يا شيعة آل أبي سفيان - ولم يقل لهم يا سُنة آل أبي سفيان ، ذلك لأنه أستخدم اللفظ في معناه الصحيح الذي وضع له ، وأما ما يتسالم عليه الناس من تسميات ومصطلحات في هذا المجال فهي خارج البحث لأنها لا تستقيم والمعنى الذي أسسه الكتاب المجيد وسارت عليه لغة العرب ....

آية الله الشيخ إياد الركابي